الفصل الثانى

الدولة الطولونية (254هـ-292هـ)

• أحمد بن طولون:

تُنسب الدولة الطولونية إلى مؤسسها أحمد بن طولون، وهو تركي الأصل، تدرج في المناصب وخدمته الظروف حتى أصبح من أهم جند الخلافة وأكثرهم ثقة عند الخليفة العباسي المستعين ومن بعده الخليفة المعتز.

والمتعارف عليه أن الخليفة كان يعين واليًا على كل ولاية، إلَّا أن هذه الفترة قد استحدث فيها أمرًا جديدًا عند الولاة اذ كان كل وال يفضل البقاء في سامراء جوار الخلافة ويرسل من ينوب عنه في إدارة الولاية.

كان باكباك واليًا على مصر من قبل الخليفة العباسي، وهو تركي الأصل أيضا، ويبدو أن علاقة قرابة قد جمعت بين باكباك

وأحمد بن طولون، حيث تزوج باكباك من أم أحمد بن طولون، وعلى أي حال، فقد قام باكباك بإرسال أحمد بن طولون لينوب عنه في حكم مصر وضم إليه الجيش.

وصل أحمد بن طولون إلى مصر في رمضان 254هـ، ومن ضمن الظروف التي خدمت أحمد بن طولون في مصر، أن مكانته وقوته قد زادت في مصر بعد وفاة الخليفة المعتز العباسي وتولية المهدي الذي كان ناقمًا بدوره على باكباك فعزله وعهد إلى يارجوخ بحكم مصر، وصب ذلك في مصلحة ابن طولون حيث كان في علاقة مصاهرة مع يارجوخ فزوجة أحمد بن طولون هي ابنة ليارجوخ، وبذلك أصبح يارجوخ أكبر عون لأحمد بن طولون في مصر.

استطاع أحمد بن طولون التصدي لكل العناصر التي حاولت النيل منه وهزم كل معارضيه في مصر واستطاع أن يضم الشام وبرقة وغيرها إلى حكم الدولة الطولونية.

أما عن أهم أعمال أحمد بن طولون في مصر، فقد قام ببناء حاضرة جديدة لمصر بعد أن ازدحمت الفسطاط ولم تعد تتسع لجنده الترك، وسار أحمد بن طولون على نفس سياسة أسلافه في أن تكون عاصمة مصر في الموضع الذي يقع بين الوجهين البحري

والقبلي، فقام أحمد بن طولون ببناء مدينة القطائع بجوار المقطم حيث تتسع لجنده، ولتجديد شخصية مصر بعد أن قامت فيها دولة تسيطر على بعض ولايات الدولة العباسية مثل الشام والثغور الشامية وبرقة وطرابلس والحجاز.

ويبدو ان اسم القطائع مشتق من قطعة، حيث قسمها ابن طولون إلى قطع لتقيم كل طائفة في إحداها.

شيَّد أحمد بن طولون قصرا ضخما في القطائع، وبما ان العاصمة الجديدة لايكتمل بناؤها في الدولة الإسلامية بدون مسجد جامع، فقام ابن طولون ببناء الجامع الكبير الذي يعرف باسمه ولايزال قائما حتى اليوم، ويمتاز عن غيره من الجوامع بالمأذنة ذات السلالم الخارجية.

وفي سنة 270هـ اشتد المرض على أحمد بن طولون حتى تُوفى، وكانت ولاية عهده لابنه خمارويه من بعده.

• خمارويه بن أحمد بن طولون:

تَّولى خمارويه حكم مصر خلفًا لأبيه أحمد بن طولون، وكانت أمور الدولة مستقرة وخزائنها ممتلئة.

حاول الخليفة العباسي المعتضد استعادة السيطرة على مصر

مرة أخرى إلَّا أن خمارويه استطاع هزيمته، والحفاظ على دولته كما ورثها من أبيه دون نقصان.

قرر خمارويه أن يطلب الصلح من الخليفة العباسي ويبدو أن الخليفة قد وافق على طلب الصلح لما أدرك قوة خمارويه وتمكنه من إدارة دولته، وأعطى الخليفة مرسومًا بتعيين خمارويه وولده ثلاثين سنة، حكم مصر والشام والثغور.

ولتدعيم العلاقات بين خمارويه من جهة والخليفة المعتضد من جهة أخرى، فقد تزوج الخليفة العباسي من قطر الندى ابنة خمارويه، ومازال حفل زفافهما يضرب به المثل في الفخامة والتكلفة حتى اليوم.

خلاصة القول أن خمارويه كان أميرًا قويًا حافظ على أملاك الدولة الطولونية بل وزاد فيها، كما نجح في تحسين علاقته مع الخليفة العباسي، إلَّا أنه أنفق أموالا طائلة في زواج ابنته قطر الندى من الخليفة العباسي حتى مات وخزائن الدولة شبه خاوية.

كان خمارويه يعيش في ترف ونعيم، فكان يسكن القصر سنة واحدة ويلبس الثوب يوما واحدا، ويركب الحصان شهرًا واحدًا.[1]

1- أ.د. عصام الدين عبد الرءوف - مصر الإسلامية - ص104

عُرِفَ عن خمارويه شغفه بصيد السباع (الأسود)، وأقام لها بيوتًا خاصة، إلَّا أنه لم يكن مثل أبيه في معاملة الرعية، فعرف عنه القسوة عليهم في جمع الأموال أو في إنزال العقوبة بمخالفيه.

بوفاة خمارويه سنة 292هـ، تدهورت أحوال الدولة الطولونية، وحكم البلاد هارون بن خمارويه، فاستصغره الجند وقرروا خلعه ومبايعة أخيه ربيعة، إلَّا أن حركتهم فشلت.

مع هذا الاضطراب وجد الخليفة العباسي الفرصة سانحة أمامه لاستعادة الحكم العباسي المباشر على مصر مرة أخرى فأرسل إلى مصر جيشًا على رأسه محمد بن سليمان الكاتب الذي استطاع هزيمة الجيش الطولوني وأمر أصحابه بحرق القطائع ونهب الفسطاط، وقد طاف الكاتب بالفسطاط وأطلق سراح من في السجون، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي المكتفي أمير المؤمنين، وعهد الكاتب إلى ولاة من قبله بحكم بلاد الشام وولاياتها، وأخرج من الفسطاط ولاة بني طولون ومواليهم فلم يبق في مصر منهم أحد وخلت منهم الديار، وعفت منهم الآثار وخلت منهم المنازل، وحل بهم الذل بعد العز، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل.[1]

1- أ.د.عصام الدين عبد الرءوف – المرجع السابق – ص107

أصبح بذلك محمد بن سليمان الكاتب أول والٍ على مصر بعد زوال الدولة الطولونية، ورجوع مصر إلى الحكم العباسي المباشر من جديد.